International Journal of Advanced Research in Islamic Studies and Education (ARISE)
e-ISSN 2785-9088

# الشيخ أبو القاسم بن خَجُّو ودفاعُه عن الفقراء الصوفية من خلال رسالته "ضِياء النَّهار المُجلي"

# [AL-SHAYKH ABU AL-QASIM BIN KHAJJU AND HIS DEFENSE OF AL-FUQARA' AL-SUFIYAH THROUGH HIS BOOK "DIYA' AL-NAHAR AL-MUJLI"]

IZHAM HAKIMI REDZAN[1]* & MARYAM BENHADDOU[2]

[1*] Dar El-Hadith El-Hassania Institution, Al-Qarawiyyin University, 7 Avenue Annakhil, Rabat, Morocco.
[2] Faculty of Arts and Humanities, University Mohammed V Rabat, Morocco
Corespondent Email: izhamhakimi92@gmail.com

*Received: 15 Setember 2021* *Accepted: 27 September 2021* *Published: 5 October 2021*

**Abstract:** : Without doubt, various forms of bid'ah emerged during the expansion of Muslim territories. Subsequently, fitnah began to creep up on Muslim's life to the extent that it had affected their belief, worship and behavior. Then, ignorance prevailed among some fuqara' and jurists, and discord between the two classes thus escalated. The two classes accused each other of practising bid'ah and having gone astray from the right path, especially from the side of jurists to al-fuqara'. Hence, what kind of accusations that the jurists had made against the al-fuqara'? And what were their reasons for doing so? Was it due to the predominance of jurists in the society unlike al-fuqara'? Therefore, Sufi scholars took it upon themselves to tackle this threat. A number of them were entrusted to regulate the fundamentals of faith and to preserve it. Among them who followed the lead of those scholars in support of Sufi doctrine was al-'Allamah al-Faqih al-Nawazili Shaykh Abu al-Qasim bin Khajju, who died in 956 A.H., through his book "Diya' al-Nahar". In this article, we have adopted the "descriptive method" to extract and outline Shaykh Ibn Khajju's defence of al-fuqara' and the most important methodological features he had used in reasoning, and also to introduce the book and the author's personality.

**Key words**: Ibn Khajju, Diya' al-Nahar, al-Fuqara'.

**ملخص** : ومما لا شك فيه حينما توسّعتْ بلاد المسلمين ظهرت البدعُ والحوادث، وبدأت الفتنةُ تتسلّل إلى حياة المسلمين حتى أصابت عقائدَهم وعباداتِهم وسلوكَهم، وعمَّ الجهلُ بعضَ المتفقِّهة والفقراء، فعظُم الخلاف بين الطائفتين، فرمى بعضُهم البعضَ بتهمة الزيغ والضلال ومخالفة السنة، وكان الصوفية هم الأكثر رميا بهذه التهم والتحذير من سلوك طريقهم. فهل كانوا حقا مبتدعين ومخالفين للسنة؟ وما سبب اتهامهم بهذا؟ هل لأن أغلب من أفتوا ببدعية ممارسات الصوفية كانوا من الفقهاء الرسميين الذين ينقاد العامةُ لفتاويهم، ولغياب الفقهاء من الصوفية لإثبات شرعية ممارساتهم؟ فقام بعض العلماء الصوفية بالتصدِّي لهذا، وممّن حذا حذو هؤلاء الأعلام نُصرة لمذهب الصوفية العلامةُ الفقيه النوازليّ أبو القاسم بن علي بن خجُّو الحسَّاني المتوفى سنة 956هـ، في رسالته: "ضِيَاء النَّهَارِ المُجْلِي لغَمَامِ الأَبْصَارِ فِي نُصرةِ أَهلِ السُنَّةِ الفُقَرَاءِ الْأَخْيَارِ المُفَسِّر لِما خفِي من أحوالهم على الأبرار". وقد واعتمدنا في هذه المقالة على المنهج الوصفي من خلال رسالة "ضياء النهار" لاستخراج وبيان معالم دفاع الشيخ ابن خجو عن الفقراء الصوفية، مستنبطين أهم ملامح المنهجية التي وظَّفها في الاستدلال، ومعرِّفين بالكتاب مع التعريف بشخصية المؤلِّف.

**الكلمات المفتاحية:** ابن خجّو، الفقراء الصوفية، ضياء النهار

**Cite This Article:**
Izham Hakimi Redzan, Maryam Benhaddou. 2021. Shaykh Abu al-Qasim bin Khajju wa Difa'uhu ‘an al-Fuqara' al-Sufiyyah min Khilal Risalatihi Diya' al-Nahar al-Mujli [Shaykh Abu al-Qasim bin Khajju and His Defense of al-Fuqara' al-Sufiyah Through His Book "Diya' Al-Nahar Al-Mujli"] *International Journal of Advanced Research in Islamic Studies and Education (ARISE)*, 1(2), 122-139.

## المقدمة

فقد بعث الله تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ رحمة وهداية للعالمين، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، فكان يتلو على الناس القرآن، ويعلمهم السُّنن والأحكام، حتى أكمل الله دينه، وأتمَّ شريعته، وبعد وفاة الرسول ﷺ قام أصحابُه مقامه في التبليغ والتعليم أحسن قيام، فتفرَّقوا في الأمصار يدعون إلى الله تعالى، ويُعلِّمون الناس الوحي كما أُنزل، ثم كان لهم تلاميذُ وأصحاب حملوا عنهم فقههم، وساروا بسيرهم، فتكوَّنت مدارسُ ومذاهبُ في العلوم والآداب لا تخرجُ عمَّا سَنَّه رسولُ الله ﷺ والخلفاءُ مِن بعده، وبعد انقراض عصر الصحابة وتوسُّع بلاد المسلمين، دخل أفواجٌ من الناس في الإسلام طوعًا وكرهًا، واختلط الصالحُ بالطالح، وظهرت البدعُ والحوادث، وبدأت الفتنة تتخلل إلى حياة المسلمين حتى أصابت عقائدهم وعباداتهم وسلوكهم، فقام العلماء بالتصدِّي لهذا الخطر العظيم الذي أصبح يهدِّد لحمة الأمة، وانتدبت طائفةٌ منهم لحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله، فكان منهم أبو الحسن الأشعري وأشياخُه وتلاميذه، وقامت طائفةٌ أخرى بحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه، فكان من أجلِّهم الأئمةُ الأربعة وأصحابهم، وقامت طائفةٌ بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله، فكان منهم أبو القاسم الجنيد وأشياخُه وتلاميذه، وبهذا يُعلم أنَّ طريق أهل التصوف أسَّسها الوحيُ السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، وليس كما يزعم منتقدوهم أنها من البدع والمحدثات.

وفي هذه الفترة الزاهرة كان الفقهاء والمتصوفة على مذهبٍ واحدٍ منسجمٍ ومنتظمٍ في خدمة الرسالة المحمدية، لصدور الجميع في حالتَي الاتفاق والاختلاف عن الكتاب والسُّنة، حتى قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد: ((علمُنا مضبوطٌ بالكتاب والسُّنة، من لم يحفظ القرآنَ ولم يكتب الحديثَ ولم يتفقَّه لا يُقتدى به))، وعلى هذا السَّنَن الأبيَن كان رجالُ "الرسالة القشيرية"، و"طبقات السُّلمي"، و"الحلية"، وبقي الأمر على ذلك حتى دخل في كل فرقةٍ دُخلاء، وعمَّ الجهل بعضَ المتفقِّهة والفقراء، فعظُم الخلاف بين الطائفتين، وتعصَّب كل فريق لمذهبه، واشتدت النفرة بينهم، وتدافع كلٌّ منهم لنيل الصدارة والإمامة، واستقطاب الأتباع من العامة، إلَّا أنَّ الهيمنة كانت في الغالب للفقهاء، لكونهم أهل الفتيا فيما يقع من النَّوازل والأحكام، وعنهم يصدِر القضاةُ والحُكَّام الأحكام، فاتَّهموا الصوفية الأخيار بالابتداع في الدين، وتكاثرت التآليف في الإنكار عليهم ونقْد مذهبهم، وبعضُ ما انتقدوه وجيهٌ وظاهر، قد قام به من الصوفية أنفسِهم أئمةٌ كبار؛ كالغزالي وزرّوق وغيرهما، لكن أكثره مدفوعٌ ومرفوض، لكونه مبنيًّا على سوء الظن، وعدم العلم بأحوال القوم، لذلك لمّا ترجم الذهبي في "ميزان الاعتدال في نقد الرجال" لعمر ابن الفارض

(m. 632H) قال: ((فتدبر نظمه ولا تستعجل، ولكن حَسِّن الظنَّ بالصوفية...)) (al-Zahabi, 1963)، ولو جربوا لما أنكروا، ومن جهل شيئًا عاداه.

وهذا ما كان سببًا في استنهاض طائفة من الأئمة الأعلام للدفاع والانتصار لمذهب الصوفية الأخيار، وبيان أنه من الإسلام، فأصَّلوا قواعده من الكتاب والسُّنة ونصوص الأئمة، ورَدُّوا على المنكرين بالحجج الظاهرة والبراهين الساطعة، وكثرت في ذلك التصانيف.

ومن أشهر من ألَّف في الدفاع عن مذهب الصوفية: حجة الإسلام الغزالي (m. 505H)، وتقي الدين السبكي (m. 756H)، وقاسم العقباني (m. 854H)، ومحمد بن يوسف السنوسي (m. 895H)، وأحمد زروق البرنسي (m. 899H)، وجلال الدين السيوطي (m. 911H)، وعبد الوهاب الشعراني (m. 973H-)، وأحمد بن يوسف الفاسي (m. 1021H)، وعبد الكبير بن محمد الكتاني (m. 1333H)، ومحمد بن جعفر الكتاني (m. 1345H)، وأحمد بن الصديق الغماري (m. 1380H)، وعبد الله بن الصديق الغماري (m. 1413H)، وغيرهم.

وممن حذا حذو هؤلاء الأعلام في نُصرة مذهب الصوفية رضي الله عنهم: العلامة الفقيه النوازليّ أبو القاسم بن علي بن خجُّو الحسَّاني المتوفى سنة (m. 956H)، فوضع في الردِّ على من عارض أولياءَ الله الصوفية رسالة وَسَمَها بـ"غنيمة السلماني"، ثم اختصرها إلى رسالة سمّاها: "ضياء النَّهار المجلي لغمام الأبصار في نُصرة أهل السُّنة الفقراء الأخيار".

انطلاقا من هذا قد وقع اختيارنا على هذا العلَم المغربي الذي لا يُشك في علمه وورعه بغيةَ الوقوف على إحدى مؤلفاته النّفيسة التي حاول فيها أن يدافع عن الفقراء الصوفية وممارساتهم السُّنِيَّة السَّنِيَّة للتصوف، وتُعدُّ هذه الرسالة أنموذجا حيّا للردود والمناظرات التي اشتدّت بين الفقهاء والصوفية.

## 1. ترجمة الشيخ أبي القاسم ابن خجو الحسان

### اسمه

هو أبو القاسم بن علي بن محمد ابن خَجُّو الحسّاني الخَلُّوفي الفقيه الصوفي النوازلي، كان يستظهر الفقه المالكي، قوّالا بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم، حلاّه محمد بن جعفر الكتاني بقوله: ((كان –رحمه الله–فقيها مطّلعا، متضلّعا، حافظا، مفتيا، متقنا، ورِعا، شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عظيم الإنصاف، لا يفتي إلا بما عَلِم)) (al-Kattani, t.th).

**عصره**

عاش الشيخ ابن خجو في فترة حرِجة من تاريخ المغرب، وهي فترة أواخر العهد الوطاسي، فقد عاش في صميم عهد الإمارة الراشدية بشفشاون، التي كانت ما بين 876هـ و969هـ، وأدرك جزءًا من حياة منظِّم الحركة الجهادية بالمنطقة الشمالية ومؤسِّس مدينة شفشاون علي بن موسى بن راشد العَلَمي، وعندما مات الأمير علي بن راشد كان في نحو الثلاثين من عمره. (أفاد الدكتور عبد القادر العافية أن مترجَمنا عاش على الأرجح ما بين سنة 887 هـ و956هـ) (Majallat Da'wat al-Haq, 1976).

**نشأته وحياته**

ينتَسِب الشيخ ابن خجو إلى أسرة عريقة نبيلة في شمال المغرب ببني حسَّان بجبال غُمَارة جوار مدينة شفشاون، ونبغ من هذه الأسرة مجموعةٌ من القراء وفقهاء الدين وحفّاظ الشريعة، فوالدُه عليٌّ كان فقيها، وكذا أخوه الحسنُ الذي نجِد له فتاوى عديدةً في كتب النوازل وخاصة نوازل العلَمي (نوازل العلمي للشيخ عيسى بن علي الحسني العلمي (ق 12هـ))، وأخته آمنةُ كانت عالِمةً. (السيدة آمنة بنت علي ابن خجو (m. 963H)، إحدى الفقيهات المغربيات، وهي زوجة أبي محمد عبد الله الهبطي (الهبطي الكبير)، والقول بأن آمنة ابن خجو هذه أم أبي عبد الله محمد الهبطي (الهبطي الصغير) كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين ففيه نظر –كما أفادنا بذلك أستاذنا الدكتور خالد زَهري– لعدة أمور، منها:

**أولا**:

أن الهبطي الصغير في منظومته "المعرِب الفصيح" ذكرها ذكرا مقتضبا لا يليق بأمّ في مقام الأحرى الافتخار بها فيه، وسياق ذكرها يُشعر بأنها ليست أمه، حيث قال:

قالوا: تزوّجْ إن ترِد ما ترجو ... أختَ أبي القاسم ابن خجو
فإنّها في غاية الديانة ... والحسب الأثيل والصيانة

وقد دأب المغاربة على الافتخار بنسائهم سواء كنّ أمّهات أو زوجات أو أخوات، وعدم إخفائهن خاصة العالمات منهن والصالحات، ومثال ذلك ما فعله ابن عسكر الشفشاوني في كتابه "دوحة الناشر" الذي ترجم أمّه "عائشة بنت أحمد الإدريسية" (m. 969H) ترجمةً وافية مفتخرا بها، ذاكرا محاسنها وكراماتها.

**ثانيا:**

لم يصرّح في المنظومة المذكورة بأنّها أمّه، فالأمر يحتاج إلى دليل أو قرينة واضحة تثبت ذلك.

**ثالثا:**

لا يستلزم من إشادته بذكائها وتحصيلها في البيتين المذكورين أنّها أمّه، فقد تكون أمه وقد تكون زوجة أبيه. وغاية ما يمكننا الجزم به من خلال ما وصلَنا من نصوص –في حدود اطّلاعنا–أن آمنة ابن خجو هي زوجة الهبطي الكبير، وأما الجزم بكونها أم الهبطي الصغير فلا تسعفنا النصوص في ذلك).

تعلّم بكُتّاب المَدْشَر وتعهّدتْه أسرتُه بالعناية والرعاية والتربية الحسنة، وبعدما أتم حفظَ القرآن الكريم ونبغ فيه أخذ يدرُس قواعد اللغة العربية والفقه المالكي والعقائد والمنطق والأصول والتصوف، وبعد أخْذه من كل الفنون المعروفة في وقته بنصيب وافِرٍ تاقتْ نفسُه لاستكمال دراسته بمدينة فاس. (لسنا ندري بالضبط متى انتقل إلى فاس، وإنما الذي نعلمه أن مشيخته بفاس كانت تتمثل في كبار العلماء والفقهاء والقراء) ( Majallat Da'wat al-Haq, 1976).

فهو بالرغم من رجوعه لبلده واشتهاره بعلمه وفضله، حيث أصبح أحدَ أركان الفتيا في بلاد الهَبْط وجبال غمارة لا زال يذكر فاسًا وأيامَها وشيوخَه بها.

تولى منصب الفتوى في ناحية بلاد الهبط (بلاد الهبط يمتد جنوبا من نهر ورغة لينتهي شمالا على المحيط، وشرقا بمقدمة جبال الريف، ويبلغ عرضه ثمانين ميلا، وطوله مائة ميل) (al-Wazani, 1983). ومهمة المفتي آنذاك هو النظر في حل القضايا المستعصِية التي لا يتّسع وقتُ القضاء لتخريجها، ونظرا لأهمية هذه المهمة كان تعيين المفتين من اختصاص المِلك في عهد السعديين.

**شيوخه وتلامذته**

تفقّه بحضرة فاس وأخذ عن كثير من شيوخها، كالشيخ أبي العباس أحمد زروق البرنسي (m. 899H)، وأبي عبد الله محمد بن غازي المكناسي (m. 919H)، وأبي العباس الزقاق (m. 932H)، والأستاذ محمد أبي جمعة الهبطي الصمَّاتي صاحب وقف القرآن (m. 930H)، وأبي محمد عبد الله الهبطي المعروف بـ "الهبطي الكبير" (m. 963H).

وأخذ التصوف عن شيخه عبد الله الهبطي، ويذكر لنا ابن عسكر الشفشاوني أن الهبطي كان يعظّمه ويُجلّه ويعمل بمقتضى فتاويه لورعه ورسوخ علمه (al-Shafshawani, 1977) ، وكان الشيخ ابن خجو في المقابل إذا أشكلتْ عليه مسألةٌ يلجأ إلى شيخه الهبطي.

فلا شك أن تلامذته كثيرون خاصة وأنه كان صاحب مدرسة علمية ببلده"سعادة"، ومن أبرزهم: الشيخ محمد بن عسكر الشفشاوني (m. 986H) صاحب "دوحة الناشر"، والفقيه موسى بن علي الوزاني (m. 969H)، وابنه علي بن أبي القاسم ابن خجو (m. 985H) تفقه على أبيه وخلفه في التدريس والإفتاء بجامع بني حسّان، وصهره الشيخ الحسن بن يوسف بن عرضون الزجْلي، وحفيده الشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن بن عرضون الزجْلي(m. 992H).

**وفاته وإقباره**

ذكر في دوحة الناشر لمّا تغلب السلطان أبو عبد الله الشيخ الشريف على مُلك المغرب وبعث لسائر الفقهاء بالحضور بعَث إليه، فوفد عليه وحمل كفنَه معه، والسبب في ذلك أنه كان يسأل الله أن يجعل وفاته بفاس، فرأى فيما يرى النائم وقائل يقول: ((قد أجيبت الدعوة)).

فلما قدم فاسًا أيقن بوفاته، ولما لقي السلطان أُعجِب به وقال: ((ما رأيت أفضل من هذا الرجل علما وصلاحا))، ثم رغِب منه أن يُقيم بفاس أياما لينتفع منه، فأقام أياما ثم أناخ به أجله فتُوفي رحمه الله سنة 956هـ، وحضر السلطان والكافة جنازته، وكسَر الناسُ نَعْشه وحملوه أطرافا للتبرك، ودُفِن بجوار روضة ابن عَبَّاد داخل باب الفُتُوح من مدينة فاس (al-Shafshawani, 1977).

**من مؤلفاته**

اشتهر الشيخ ابن خجو في ميدان الفتيا، فكانت تنهال عليه الأسئلةُ والاستفتاءات من مختلف الجهات والأقاليم، وبالإضافة إلى ذلك فتاويه التي امتلأت بها صفحاتُ كتب النوازل مثل: نوازل العلمي، ونوازل الزياتي، ونوازل المهدي الوزاني المسمى بـ"المعيار الجديد"، ونجد له بعضَ المؤلفات غير الفتاوي منها:

1. النصائح فيما يحرم من الأنكحة والذبائح. (توجد نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم (13839) ونسخة بالمسجد الأعظم بوزان تحت رقم (1/1095)، ونسخة بخزانة تطوان ضمن مجموع تحت رقم (353)).

2. كتاب المقنع الشرح الجامع لنظم مسائل ابن جماعة/ شرْحُ نَظْمِ مسائل البُيُوع لِابن جماعة السَّنُوسي/ شرح هداية المسكين لمن أرادها من أهل الدين (Samir Yahya Samrad, 2018)، –وهذه الأسماء لكتاب واحد–.
3. ثلاث رسائل تتحدث عن: اختلاط الرجال والنساء وصحة إيمان البدو الجهال وزيارة القبر (توجد نسخة منها بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: (99، ت73)، ونسخة أخرى ضمن مجموع بالمكتبة العامة بتطوان تحت رقم: 353).
4. غنيمة السَّلماني في حكم قَسْمِ الشجرة الواحدة وإقامة الجمعة في البادية وفي الردّ على من عارَض أولياءَ الله الصوفية (Ibn ʻAradun, 2010) .
5. ضياء النَّهار المجلي لغمام الأبصار في نُصرة أهل السُّنة الفقراء الأخيار المُفَسِّر لِما خفِي من أحوالهم على الأبرار –وهي الرسالة موضوع هذه المقالة–.
6. شرح أرجوزة الهبطي في أقسام العدة وأحكامها والحيض والرضاع (حققه وعلق عليه الفقيه عبد الله بنطاهر منسق فرع المجلس العلمي بأكادير، ونُشر ضمن مجلة المذهب المالكي، العدد "6").
7. الحُكم المنتخب من عيون الحِكم.

## 2. ملامح من تصوف الشيخ أبي القاسم ابن خجو

### انتماؤه للطريقة الصوفية

ينتمي الشيخ ابن خجو إلى السلسلة الشاذلية وينتسب إلى الطائفة الجُزولية، أخذ العهد الطُرقي عن شيخه أبي محمد عبد الله الهبطي، والهبطي قد أخذها عن الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني (m. 935H) عن الشيخ أبي محمد عبد العزيز التبّاع (m. 914H) عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجُزولي (m. 870H)، والجزولي له أسانيد إلى أبي الحسن الشاذلي (m. 656H)، ولا شك أنه جُزوليةٌ مشربًا.

### سببُ تحوّله إلى التصوف

وفي ذلك خبر عجيب حكاه الهبطي الصغير في "المعرِب الفصيح" عن والده حيث إنه بعدما لقي الغزواني بفاس وصحبَه، واتخذه شيخَ تربية وأخذ عليه العهد بالاقتداء والصحبة رجع إلى جبال غمارة وأخذ يرغّب صاحبَه ابن خجو في الدخول في هذه الطريقة ويعدّد له محاسنَها، فامتنع عليه ابن خجو وعارضه في أول الأمر إلى درجة أنه قال للهبطي: ((كان يهُون عليّ أن أراك يهوديا أو نصرانيا على أن أراك تتعلق بأذيال هؤلاء القوم)).

فما زال الهبطي يُقنِع صاحبه حتى فهِم مراميَ التصوف ومنافعَه ومزاياه، وطال الحوار بين الصديقيْن وأخَذ كلٌّ منهما يحتجّ بما لديه من النصوص، ولجآ معا إلى الكتب لاستشارتها وللاستعانة بها، وبعد مُضي وقت غير قصير كانا قد لجآ إلى نحو 30 كتابا من خزانة ابن خجو، وانتهت هذه الجولة من الحوار والاحتجاج بانتصار الشيخ عبد الله الهبطي على صديقه ابن خجو الذي كان عنيفا في البداية.

وبعد مدة قليلة من هذا الحوار نرى أن الشيخ ابنَ خجو يتحول إلى مدافِع عن الصوفية وعن المريدين وكتَب في ذلك "غنيمة السلماني" و"ضياء النهار"، وبالرغم من تضلّعه في العلوم الدينية يتخذ من صديقه عبد الله الهبطي شيخا في ميدان التربية الصوفية، بل أكثر من ذلك أصبحا يتعاونان معا في ميدان الدعوة ولا يفترقان إلا قليلا حيث أخذا يتجولان معا في القبائل والمداشر داعيَيْن إلى الله آمِرَيْن بالمعروف وناهيَيْن عن المنكر، بل نسّقا خُطّتهما في هذا الشأن تنسيقا عجيبا، وتَوّجا تعاونَهما بالمصاهرة بينهما بتزويج أخت الشيخ ابن خجو السيدة آمنة للشيخ عبد الله الهبطي، فكانت مشارِكةً معهما في ميدان الدعوة تقوم بتعليم النساء ودعوتهن إلى الله وإرشادهن إلى الطريق المستقيم في دار زوجها بالزاوية الهبطية (al-ʻAfiyah, 1982).

## مفهوم المشيخة الصوفية عند الشيخ ابن خجو

ويذكر عبد الله كنون عن ابن خجو وشيخِه الهبطي أنهما هذّبا التصوف ونقّحاه لـمّا طغا عليه سبيلُ التّدليس والتّلبيس، أي الإنكار على فقراء وقتهم وأدعياء التصوف والمشيخة في زمانهم بدون علم (ʻAbd Allah Kannun, 1380) ، ويدل على هذا أحدُ أجوبة الشيخ ابن خجو حيث قال: «ولا ينبغي أن يتخذ شيخا في طريق الإرادة – طريق التصوف– إلا رجلا عالِمًا بالعلم الظاهر والباطن، عالِمًا بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، بعيدا عن مطاوعة النفس والطمع والبِدع المُضِلَّة كالسيد الرباني سيدي عبد الله بن محمد الهبطي ومن ضارَعه من السادات الأخيار المُلازِمين لسنة النبي محمد المختار ﷺ (Ibn ʻAradun, 2010) .

## 3. التعريف برسالة "ضياء النَّهار المجلي"

### مدخل عام حول الرسالة

رسالة "ضياء النَّهار المجلي لغمام الأبصار في نُصرة أهل السُّنة الفقراء الأخيار المُفَسِّر لِما خفِي من أحوالهم على الأبرار" التي بتحقيقنا حاول مؤلّفُها من خلالها الردَّ على الشُّبه التي أُثيرت حول السادة الصوفية في زمانه حيث لاحظ ما يَتعرّضون له من الإنكار من بعض الفقهاء، فقام لمنافحتهم لإظهار الحق وإزهاق الباطل، وقد دلّل على كل مسألة افترضها ببراهين وحجج وتحليل مضامينها وتوضيح مقاصدها وإظهار الأُسس التي بنى عليها الفقراءُ

الصوفيةُ ممارساتهم، ليستنتج من كل ذلك أنّ التزامَهم في اعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم مبنيٌّ على الكتاب والسنة ومكارم الأخلاق، وبعيدٌ عن الزيغ والضلال، وسقوطُ المنكرين عليهم تحت وطأة الجهل والظنّ والباطل.

## سبب تأليف الرسالة ومنهج المؤلِّف في التأليف

كما سبقت الإشارةُ هذه الرسالة هي اختصارٌ لـ"غنيمة السلماني"، وهي تأليفٌ في بيانِ أدلة مشروعية أعمال الفُقراء الصوفية من الاجتماع على الذّكر والجهر به والبكاء والأنين والوجْد والتواجُد والضرب بالأرجل والتصفيق والاهتزاز والرقْص وغيرها من الأحوال، وفي دحْض الشُّبه التي أثيرت حول التصوف من طرف المعارضين مع إيراد أدلة من الكتاب والسنة، وتمييز الفقراء الصوفية المتمسّكين بالسنّة عن غيرهم.

وقد ألفها واختصَرها عُدّةً لأصحابه وردًّا على المنكِرين حيث قال: ((ليَقرُبَ نَسْخُ المختصَر على كل فقير، وليصير عنده مُفْحِمًا لكل معارِضٍ ونكيرٍ)) (Ibn Khajju, t.th)، وقد أجرى هذه الرسالة على نسق السؤال والجواب، كقوله: ((فإنْ قال قائل: ما الدليل الفقراء على رفع الصوت بالذكر... قُلنا: ...)) وهكذا إلى آخرها.

## مضمون الرسالة

لقد كان الإنكار على الفقراء وبعض مظاهرهم منذ قديم الزمان وما زال مستمرًّا إلى عهد الشيخ ابن خجو، وكان هذا معروفا عند المسلمين شرقا وغربا لا سيما من قِبل الفقهاء وأعداء التصوف، وهذا الأمر لم يكن من هؤلاء فحسب، بل في الغرب الإسلامي قد ظهر عند بعض القضاة والفقهاء المتصوفة الذين بادروا إلى الإنكار على الفقراء الأخيار، ولعل ما يفسر هذا ظهورُ نزعةٍ إصلاحيةٍ عندهم، ولم يمسك العلماء والفقهاء الذين استحسنوا طريقة الفقراء عن الردود على هؤلاء المنكرين بل ألّفوا رسائل وأفتَوا في المسألة يُبيّنون من خلالها بأنّ ذلك حسَنٌ سائغٌ وليس من البدع بشيء، والفتاوى التي نقلها أبو العباس الونشريسي (m. 914H) في "المعيار" شاهدةٌ على ذلك فيما يتعلق بالردود بين الفقهاء المُؤيّدين للفقراء والمبدّعين لهم، ومن ذلك:

أ. تأليف نُسب لأبي محمد عبد الله بن موسى الفشتالي الفاسي (m. 650H) بعنوان "إقامة الحجة في الردّ على ما أحدَثه المبتدِعة في كثير من الأعراف والعادات والتقرّب بالذبائح". (مخطوط، توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع تحت رقم (102/د) في نحو (10) ورقات، وثلاث نسخ أخرى في خزانة الزاوية الناصرية بتمكروت بعنوان "رسالة في ذم البدع" وأرقامها (2088/د) و(2088/ح) و(2735/هـ)).

ب. تأليف لابن مرزوق الحفيد التلمساني (m. 842H) تحت عنوان "النصح الخالِص فيمن يدّعي رتبة الكمال للناقِص" يردّ على معاصره الشيخ أبي الفضل قاسم العقباني التلمساني (m. 854H) الذي يُحسن صنائع

الفقراء الأخيار، وعدّ ابن عرضون أن من اقتصر على مطالعة هذا الكتاب بادَر إلى الإنكار على الفقراء (Ibn 'Aradun, 2010).

ت. تأليف للإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (m. 895H) المسمى بـ"نصرة الفُقَيِّر في الرد على أبي الحسن الصُّغَيِّر". (المقصود هنا أبو الحسن الصُّغيّر المكناسي معاصر للإمام السنوسي وليس أبا الحسن الصّغيّر الزرويلي (m. 719H) شارح المدونة، قال الإمام السنوسي في "نصرة الفقيّر": ((فأردتُ الكلام على بعض ما يتعلق بحالهم [العلماء غير العارفين بالله] لا سيما أوراق تشبه الطرر بعثَها أبو الحسن الصّغيّر المكناسي...)) وقال في موضع آخر: ((وكنتُ قبلُ أسمع من الطلبة يقولون أبو الحسن الصغير [أي المكناسي] هذا عالم ليشبه أبا الحسن الصّغيّر [الزرويلي] شارح المدونة...))، ومن خلال قول الإمام السنوسي في رسالته المذكورة يمكن أن نستنتج أن لكلّ من المكناسي والزرويلي رسالة في الرد على الفقراء، وقرينة ذلك أن مضمون مسائل الرسالة المنسوبة إلى الزرويلي غير ما ورد في ردّ الإمام السنوسي عليه. [يُنظر مخطوط بخزانة القرويين تحت عنوان "تقييد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالرقص والشطح وغير ذلك من البدع"" برقم (1/328)، ومخطوط بالخزانة الحسنية بعنوان "كتاب في الرد على الفقراء وسائر البدع المحدثات في الإسلام من أربع مذاهب للشيخ الفقيه الحافظ أبي الحسن الصّغيّر" برقم (12226)]، وبالرغم من أن ناسخ مخطوط الخزانة الحسنية استدرك على صفحة العنوان بأنه "لأبي الحسن المكناسي لا الزرويلي"، فهل يكون ذلك من وهْم الناسخ فقط! وهذا لا يُنفي نسبتَه إلى الزرويلي، ومما يؤكد صحةَ ما أوردناه موقفُ أكبر تلامذته وهو أبو فارس عبد العزيز القروي (m. 750H) في الإنكار على صوفية عصره، وقد نقل في فتواه التي سجّلها صاحب المعيار (32/11) حججَ شيخه أبي الحسن الزرويلي في الإنكار على بعض ممارسات الصوفية).

ث- تأليف لأبي إبرهيم بن هلال السجلماسي (m. 903H) بعنوان "الرد على من اتّخذ الشطح والرقص عبادةً".

وهذه الرسالة التي بين أيدينا أُنموذج من تلك النماذج، وهذا النوع من التأليف ليس أمرا جديدا ابتدعه الشيخ ابن خجو؛ إذ نجد هناك من سبقه بالتأليف في هذا الموضوع مثل الإمام السنوسي، وأما الفتاوي التي تتعلق بنصرة الفقراء فنجدها مبثوثةً في بطون كتب النوازل.

وقد رتّب المولّف -رحمه الله تعالى-هذه الرسالة على مقدمة وثمانية عشر فصلا وخاتمة، وذكر في المقدمة سبب تأليفها، ومن خلال الفصول التي عقدها تصدّى لردّ الشُبهات والدعاوى التي أثيرت حول الموضوع وبيانِ الأدلة المعتمدة عند الفقراء في مثل:

- مسألة رفع الصوت بالذكر مناوبةً وجماعةً.
- واجتماع الفقراء على التوبة.

- وقراءة الفاتحة والذكر جهرا بعد الصلوات.
- وتحديد الذكر بعدد معيَّنٍ.
- وتلقيم اللُّقمة.
- والبكاء بالأنين والعويل والرقص والشطح والاهتزاز وتقطيع الثياب.
- وبيان معنى الكرامة الحقيقي.
- والحث على التمسّك بالسنة.
- ومباحثة الفقهاء المفتين الذين أنكروا على الفقراء وفتاويهم حول ذلك، وغيرها من المسائل.

ثم اختتم رسالته بالدعاء والترغيب في العمل بالكتاب والسنة، والتوبة، والمبادرة بالأعمال الصالحة، وصلة الرحِم، والصدقة، والتعاون.

ومن خلال هذه الرسالة أيضا نجد أن الشيخ ابن خجو كان مطّلِعًا على آراء المنكرين عارفا بها ورغم ذلك لم يلتفت إليهم، وإنما راح يورد الحُجج من أجل نصرة الفقراء وينتصر لهم بقوة، ويمكننا من خلال هذه الدراسة أن نقول إن هذه الرسالة كانت ردًّا على الرسالة التي نُسِبت إلى أبي الحسن الصغيّر الزروِيلي (m. 719H) ومن حذا حذوَه؛ لأن أغلب مضمونها مشابِهٌ للمسائل التي عالجها الشيخ ابن خجو، ومما جاء فيها:

- إنكار السماع والشطح والضرب على الدفّ والطنبور والعود، وآراء الأئمة في ذلك.
- إنكار الاجتماع للذكر وعدُّه من باب المكروه.
- اعتبار حلق رأس التائب من بدع الخوارج.
- الإنكار على الصوفية تدرّجَهم إلى المشيخة.
- إيراد الشروط الواجب توافرُها في الشيخ.
- الإنكار على ما يغترّ به الجهّالُ من مدّعي الكرامة بحيث يرونه يطير في الهواء وتُطوى به الأرضُ.
- الحديث عن ظهور الشطح والسماع واختلاط الرجال بالنساء على يد داود بن فوحة اليهودي.

وبالمقارنة بين الرسالتين سنجد تناسقا كبيرا بينهما، وهذا إن لم نقل إنها أدلة قاطعة وقد نصبنا قرائن على ذلك، وعلى الأقل يكون هذا الاستنتاج دليلا على أن الشيخ ابن خجو قد وصلتْه آراء المنكرين وبنى رسالته علىها للردّ عليهم وكلُّ ما ورد عليه من مسألة أو شبهة إلا وقد بيَّن الدليل على مشروعيتها وجوازها من الكتاب أو السنة أو قول العلماء المعتبَرين أو بيان قصور فهْم المنكِرين.

## مصادر المؤلِّف

تحيلنا هذه الرسالة التي بين أيدينا إلى المصادر التي اعتمد عليها الشيخ ابن خجو في تأليفها إلى أربعة أصناف من الكتب، صِنف في التصوف، وصنف في الفقه، وصنف في الحديث، وصنف متنوّع.

ومما يلاحظ أن صنيع الشيخ ابن خجو في استمداده من أصناف الكتب المذكورة لا يكون إلا لإبطال دعاوى المدّعين ضد التصوف، والاعتماد على الكتب التي اعتمدها المخالفون ليبيّن بذلك عدم فهمهم للمسائل وإيرادهم استشهادات مبتورة.

### الصنف الأول: كتب التصوف

- إحياء علوم الدين للغزالي.
- حياة القلوب لابن أبي زمنين.
- سراج المريدين لابن العربي المعافري.
- الرسالة العلمية لأبي الحسن الشُشتري.
- المباحث الأصلية لابن البنا.

### الصنف الثاني: كتب الحديث وشروحه

- الموطأ للإمام مالك
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم
- المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار لمحمد اليفرني

### الصنف الثالث: كتب الفقه والنوازل

- المصباح المبين والإيضاح المستبين شرح التلقين
- رسالة ابن أبي زيد القيرواني
- نوازل المازوني للقاضي أبي زكريا يحي المازوني
- المعيار المعرب للونشريسي

- شرح الأنوار السنِيّة في الألفاظ السُنّيّة للقمارشي

**الصنف الرابع: متنوع**

- الشفا للقاضي عياض
- لمحات الأنوار للغافقي
- قانون التأويل لابن العربي المعافري
- المنبِّهة في أسماء القراء والرواة لأبي عمرو الداني

ومما يُلفِت انتباه القارئ أن الشيخ ابن خجو يُكثِر من النقل عن "سراج المريدين" و"قانون التأويل" لابن العربي في كثير من المسائل التي أوردها في رسالته ليعلن بذلك أن الفقهاء الذين ذمّوا المتصوفة كانوا يعتمدون على أقواله وآرائه في المسائل الفقهية، ولكن في المسائل المتعلقة بالتصوف ضربوها عَرض الحائط.

ومما يُذكر في هذا المقام أيضا هناك بعض عنوانات الكتب ذكرها الشيخ ابن خجو في رسالته مثل الجمل للمجرادي، والألفية والتسهيل لابن مالك، وعقد الجواهر الثمينة لابن شاس، وتهذيب البراذعي، والموطإ، ومختصر خليل، وشرح المكودي وابن عقيل على الألفية وغيرها من الكتب التي كانت مقررةً للطلبة وعمدةً في التدريس، هذا يحيلنا إلى مستوى التعليم وما كان عليه اهتمام الناس من فنون في تلك الحقبة لاسيما عند طلبة العلم والفقهاء.

## 4. معالم من دفاع الشيخ أبي القاسم ابن خجو عن الفقراء المتصوفة

### فتاوي بعض المفتين في الإنكار على الفقراء

كان موقف الشيخ ابن خجو من المفتين في هذا الشأن مثل أبي عبد الله محمد التَّنَسي (m. 899H) وأبي محمد عبد الله الفَشْتالي(m. 650H) وأبي عبد الله محمد الحفّار(m. 811H) وأبي عمرو محمد ابنِ مَنظورٍ (كان حيا في القرن التاسع) وأبي الحسن العامريّ (كان حيا في القرن التاسع) ومَن ذمّ فقراءَ وقتِه:

### أ- إما أن يكون متأوِّلاً على ما ورَد في فتاويهم

وفي ذلك قال: ((فتوى من أفتى بذمّ فقراءِ وقتِه يحتمِل أن تكونَ فتوى وقعتْ منه في قومٍ مخصوصِينَ معرُوفينَ عنده بالقُبح والابتِداع؛ إذ في كلّ طائفةٍ من العالَمِين قِشر ولُبَابٌ)) (Ibn Hajju, t.th)، ويلتمِس لهم مخرجا حسنا إن

كانوا من أرباب التصوف، قال: ((...لكنْ لا يحِلّ لعاقِل اتصلتْ إليه فتوى بتبديع الفقراء وقَع السؤال فيهم أنْ يُطلِقَ تلك الفتوى ويذُمَّ بها جميعَ الفقراءِ، ويَلتمِسُ المَخرَج الحسَن للمفتي الذي قام له الدليلُ على تحصيل علم التصوّف من شيوخِ أربابِ طريقتِه)) (Ibn Hajju, t.th) .

**ب- وإمّا أن يحملهم على أهل الفساد والجهل منهم ولا يُعَدُّ خلافُهم شِقاقًا**

حيث أفتوا بما لا يعلمون، قال رحمه الله: ((وأما مَن لم يتفقَّه إلا مِن الأوراق فلا يُعوَّل على كلامه في أهل التصوف، وخلافُه لا يُعَدُّ شِقاقًا...)) (Ibn Hajju, t.th) ، وقال أيضا: ((وإن صَدرَتِ الفتوى مِن مجهول حالٍ في ذلك فلا تُتَلَقَّى بالقَبول حتّى تُعرَضَ على أصحاب ذلك الفَنّ الماهِرين فيه، فإنْ سَلَّمُوها وإلا رُدَّتْ...)) (Ibn Hajju, t.th) ، واعتبر -رحمه الله- أن عدم أهليّتهم واطلاعهم على تلك المسائل لا يُخَوِّل لهم الكلامَ فيها فضلا عن الفتوى فيها، وفي ذلك قال: ((فمَن لم يَتَعاطَ في عُمره سوى ابن الحاجبِ، والجواهِر الثَّمينَة، والتلخيص، والموطإ، والبراذعي ... فكيف يتَكلّم في أحوال أرباب المُغتَرِفين مِن بحر علّامِ الغيوبِ))(Ibn Hajju, t.th) .

**انتصاره لطريقة الفقراء في الذكر الجماعي جهرًا ومناوبةً**

وكان هذا وسيلةً اتخذها الفقراء لإصلاح العباد يرفعون أصواتهم بالذكر عند قُدومهم على المَدَاشِر والمنازل والقُرى والأماكنِ المعمورة؛ إذ كان بعض الناس في تلك الجبال يجتمعون على البدع المحرَّمة والفسوق والعصيان، قال رحمه الله: «واجتماعُ الفقراء والأغنياء والعلماء والخاصة والعامة ويطُوفون من قبيلة إلى قبيلة ومن محلَّةٍ إلى محلّةٍ ذاكِرين اللهَ تعالى ومُيَقّظين الخلْقَ ومُعلِّمين وداعين إلى الله عز وجل من أجلِّ البِرّ» (Ibn Hajju, t.th) .

فبمجيء الفقراء قطعوهم عن ذلك وصاروا يجتمعون على الذكر، فهذا الذي كان يرمي إليه الشيخ ابن خجو وشيخُه الهبطي وجماعتهما قد سدّ ذريعةَ إحداثِ البدع، وصار سببا لاشتهار الخير والدين عند الصغير والكبير وتوبة الناس وتعلّم الدين والعقائد وصلاح الأعمال، وشعارا لهذه الطائفة، بل إلى أن يجيزوا ذكْر النساء جماعة بالجهر في المواسم والولائم (Ibn ‘Aradun, 2010), (Samir Yahya Samrad, 2018) .

**تأييده لجماعة الفقراء أهل السنة**

وأدلُّ دليل عليه أن هذه الرسالة كُتِبتْ من أجلهم كما صرّح به في المقدمة، وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نستشهد ببعض النصوص لزيادة بيان، منها:

- حينما برّؤوهم مما يُتوهم أنه مخالِفٌ للشرع حيث قال: ((الفقراءُ لا يَنزِلون إلا عند أحبابهم وعند مَن دعاهم أو في المساجد، والضيافةُ مشروعةٌ ومسنونةٌ، والأصلُ السلامةُ، وما توهَّمْتُموه من سوء الظن، وسوءُ الظن بالمسلمين حرامٌ...))(Ibn Hajju, t.th) .
- ودافع عنهم أيضا فيما يُتوهّم أن الفقراء كانوا يجمعون المال تكاثرا من السؤال، قال:((ومَن سأل لحاجة الغيرِ ليقوّم سُؤالُه غيرَ محتاج ولا ذي هيئةٍ لنوائب المسلمين فلا جرَمَ أنه ملومٌ مذمومٌ، والفقراءُ المتمسّكون بالسّنة سؤالُهم لحاجةِ الغَيرِ شفقةً ورحمةً بضعفاء الأمة...)) (Ibn Hajju, t.th) ، وقال قبل ذلك: ((لكن لا حجّةَ لكم بهذا على كلّ الفقراء ودعواكم على الكلّ بالتّكاثُر هي نتيجةُ سوءِ ظنّكم؛ إذ هذا الأصلُ لم تُؤَسِّسُوه سوى على مجرّد سوء الظنّ والغِيبَة والنَّمِيمَة، وذلك كلُّه حرامٌ)) (Ibn Hajju, t.th) .
- وأكثر من ذلك كان يَعتبر هؤلاء الفقراء قد حازوا المقامَ الشريف وورثوا سر رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك لم يتردَّد في نصرتهم والذبّ عنهم، قال: ((فلا يخفى أنّ هذا المقامَ الشريفَ لم يرِثْه عن رسول الله ﷺ إلا أهلُ الذِّكْرِ والفِطَنِ واليَقَظَةِ والرَّأْفةِ والرحمةِ...)) إلى أن قال:((...وهم الصوفية المُتَمسِّكون بالسنّة)) (Ibn Hajju, t.th).

**موقفه من المنكرين رقصَ المتصوفة وتصفيقَهم وغير ذلك**

الشيخ ابن خجو لم يكن على طريقة هؤلاء المفتين الذين شنّعوا على الفقراء الشطحَ والرقص والسماع والتصفيق والصياح وغير ذلك مما عدّوه بدعةً مذمومةً وتلاعبا بالدين كأمثال:

- عبد الرحمن بن عفان الجُزولي (ت 744هـ) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953).
- أبي فارس عبد العزيز القروي (ت750هـ) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) .
- أبي عمران موسى العبدوسي(ت776هـ) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) .
- أبي العباس القبّاب (ت779هـ) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) .
- أبي إسحاق الشاطبي (ت790هـ) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) .
- أبي عبد الله السرقسطي(ت865هـ) ومن ذكرنا من قبلُ.

وإنما كان على طريقة: أبي البركات محمد البلفيقي (m. 771H) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) وشيخ الجماعة أبي سعيد ابن لب الغرناطي (m.782H) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) وأبي محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي (m. 849H) (Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) والفقيه قاسم

العقباني(Ahmad Mayyarah al-Maliki, 1953) (m. 854H) وممن استحسن ذلك وعدّه حسنا سائغا وله مستندات من الشرع.

قال –رحمه الله–مستدِلا لجواز الرقص: ((أصلُ جواز الرقص رقصُ الحبشة في مسجده ﷺ وهو يَنظُر إليهم ويقول: "دونكم يَا بَنِي أَرْفِدَةَ" أي جِدُّوا في الرقص، فالرقصُ والشَّطح ولُبْس المرَقَّعات والصّعْق ونحوه مما ذُكر فجميعُ ذلك له أصلٌ يُبنى عليه في الشّرع، فلا يُلام فاعلُ ذلك بمجرَّده مطلقا...)) (Ibn Hajju, t.th) .

وقال مستدلا لجواز البكاء: ((وأما الدليلُ على سَوغ البكاء في ملإٍ من الناس بالأَنِين ونحوه فحديثُ العِرباض بنِ ساريةٍ...)) (Ibn Hajju, t.th) .

## استناده في الاستدلال على التأصيل الشرعي

استند المؤلِّف في رفع الإشكالات التي أثارها خصوم الصوفية في الذب عن ممارساتهم على التأصيل الشرعي المعتمِد على الكتاب والسنة ومذاهب السلف وأقوال العلماء، ولا يوجد منها ما يستند إلى رأيه، وبذلك يمكن القول إن إجاباته كانت مفحِمةً للمنكِرين على الصوفية، لأنها مُسنَدَة بأدلة شرعية لا يماري فيها الفقهاءُ والصوفيةُ على حد سواء، ولذا فإنّ أهم ما استنتجه المؤلِّف، أن الذي يُنْكر على الصوفية هو المخالف للسنَّة، لا مَن كان على مذهب الصوفية (Ibn Hajju, t.th).

وتوسّل أيضا في تأصيل الاستدلال بالقواعد الأصولية من قبيل: "الأصل في الأشياء الإباحة"، و"من كان معه الأصل، فلا يُكلَّف الدليلَ بالبرهان"، و"حمْلُ الكلام على فوائد كثيرة خير من حمله على فائدة واحدة" وإلى آخره من القواعد.

## تأويل بعض النصوص

اعتمد المؤلِّف رحمه الله في تأويل بعض الأقوال على أهم آلية من آليات الاشتغال في فهم النصوص، وهو "علم النحو".

وذلك كما صَنَعَ مثلا في شرح قول ابن أبي زيد القيرواني: ((ويُستَحبّ الذكرُ بإثر الصلوات... فقوله في الرسالة شاملٌ للمعنَيَيْن معا، أعني: لمعنى الحديثَيْن الواردَيْن في البخاري، ولغير ذلك، مما ورَد في الذّكر دُبُرَ الصلوات، لكن يَحتاج إلى وقْفٍ وتقديرٍ يُفهَم به كلامُ ابن أبي زيد، وذلك بأنْ تقِف "بإثر الصلوات" ثم تبتدئ وتُقدِّر تقديرا تَقولُ فيه: ومِنَ الذكر المستَحَبّ يُسبِّح ثلاثا وثلاثين...)) (Ibn Hajju, t.th) ، ثم قال: ((ويكون الألفُ واللامُ في قوله: "الذكرُ" على هذا التأويل لاستغراق الجنس، فيشمَل ما ذكره البخاريُّ وغيرُه في فضْل الذكر بعد الصلوات، إذْ حملُ الكلام على فوائدَ كثيرةٍ خيرٌ من حمْلِه على فائدةٍ واحدةٍ)) (Ibn Hajju, t.th) .

**تنبيهه على شروط التخصص في الفتوى**

وقد نبّه على أن من شروط الفتوى التخصص فيما يُفْتى به، وهذه الدعوى مبكّرة من عالِم مغربي يرى أن الكلام لا يَكتسِب مصداقيته من الموسوعيين، بل من أهل التخصص.

ومن إشاراته اللطيفة في تقرير ذلك: ((وجرى دأبُ ملوكِ المِلّة وأهلِ الرأيِ والعقدِ والحَلِّ بأنهم لا يُقِيمون المفتيَ إلا مِن علماءِ فروعِ الفقهِ، سواءٌ كان مُشارِكا في الفنون الأخرى، أو غيرَ مشارِكٍ فيها، لا يَشتَرِطون فيه سِوى فروعِ الفقه، فإذا تَقرّر هذا، وعَلِمْنا أنّ الغالبَ فيمَن كان لا يتَعاطى إلا علمَ فروعِ الفقهِ والقضاءِ والفتوى عَدَمُ تحصيلِ علم التصوف وإتقانُه، بحيث لا يُدرِكه ذَوْقًا، وإنْ كان من المشارِكين فيه، فالغالبُ عليه مِن الأوراقِ، لا مِن الشُّيوخ. فإذا تقَرَّر هذا، فكيف يَسُوغ لنا أنْ نَقبَل فتوى في النَحو مِن غير نَحويٍّ، أو فتوى في الإقراء من غير قارِئ، أو فتوى في الحِساب من غيرِ حَيْسُوبِيٍّ، أو فتوى في التصوّف من غير صوفيٍّ، إذ العاقلُ لا يقبَل قولَ الخرّازِينَ في صَنعة الصوّاغِين، ولا الصوّاغينَ في صَنعة القُطّانِينَ النَّدَّافِينَ، ولا القُطّانِينَ في الكتَّانِينَ، ولا الحدَّادِينَ في الصَّفَّارِينَ، مع أنّ كلّ صَنعةٍ مِن هذه الصنائع محمودةٌ، ولكلِّ طريقةٍ رجالٌ، ولكلِّ مقامٍ مقال)) (Ibn Hajju, t.th) .

وقال أيضا: ((وأيضا فالصوابُ فيما نجِده من الفتاوى، في مسائلِ فروعِ الفقه، ونَستَشْكِلُها، أنْ نَعرِضَها على أرباب الفروع وقواعدِهم ونصوصِ مذهبِهم، وما نجِدُه من الفتاوى في مسائلِ النحو، ونستَشْكِلها، فالصواب أنْ نَكِلَهُ إلى أرباب مذهَبِه، وكذلك ما نجِده في التصوّف، فليُرَدَّ إلى أهلِ الذّوْقِ من أرباب طريقتِه، وكذلك الصوابُ فيما يُختَلَف فيه مِن كل فنٍّ من الفنون، فليُرَدَّ إلى الماهِرين المُحقِّقِين في ذلك الفنّ)) (Ibn Hajju, t.th) .

**خاتمة**

يمكن تلخيص أهم النتائج التي توصّلنا إليها من خلال تحقيق هذه الرسالة ودراستها كالتالي:

- الشيخ أبو القاسم بن علي ابن خجو هو أحدَ الفقهاء الصوفية الذين ألفوا في التصوف في المغرب الأقصى، ورسالتُه هذه تحت عنوان "ضياء النهار" تعتبر من أهم ما صُنّف في التصوف والدفاع عن أهله في زمانه.
- تُعدّ رسالة "ضياء النهار" ذات قيمة فكرية كبيرة؛ لأنها عبّرت عن أفكار وآراء ومعارف صوفية وإشارات لعلوم عقلية ونقلية لتدلّنا بكل وضوح على المكانة العلمية التي كانت للشيخ ابن خجو، واطلاعه الكبير على ميادين المعرفة التي انتشرت في عصره، لكونه متحدّثا عن الصوفية بلسان الفقيه المفتي.
- أعطت هذه الرسالة صورةً واضحةً عن شخصية المتصوف في القرن العاشر الهجري بالمغرب، وهي شخصية متميزة أظهرت عمق التربية الصوفية لأهل السنة والجماعة، كما أنّ هذه الرسالة تعبّر أيضا عن مرحلة هامّة

من مراحل حياة الشيخ ابن خجو، وهي مرحلة انتمائه للتصوف بعد أن أنكره في بداية الأمر، ثم تحوّلِه إلى ناصر الفقراء الصوفية والمدافِع عنهم.

- هذه الرسالة تعدّ ذات قيمة تاريخية حيث إنها أشارت إلى الصراع الذي اشتدّ بين بعض الفقهاء المفتين والعامة التابعين لهم وبين المتصوفة، وتضييق أولائك على هؤلاء، كما تشير إلى الجوّ السياسي العام الذي اتّسم بتعاظم سلطة الفقهاء المفتين وانقياد العامة لهم.

## REFERENCES


‘Abd Allah Kannun. 1380. *Al-Nubugh al-Maghribi fi al-Adab al-‘Arabi*. Maghribi: Markaz al-Thaqafah.

‘Abd al-Qadir al-‘Afiyah. 1982. *Al-Hayat al-Siyasiyah wa al-Ijtima’iyyah wa al-Fikriyyah bi Shafshawan wa Ahwazuha Khilal al-Qarn al-‘Ashir al-Hijri (al-Sadis ‘Ashr al-Miladi).* Maghribi: Wizarat al-Awqaf wa al-Shu’un al-Islamiyyah.

Hasan bin Muhammad al-Wazzan al-Fasi. 1983. *Wasf Ifriqiyya*. Bayrut: Dar al-Gharb al-Islami.

Ibn ‘Ardun, Abu al-‘Abbas Ahmad bin al-Hasan. 2010. *Muqni’ al-Muhtaj fi Adab al-Azwaj*. t.tp.: Dar Ibn Hazm & Markaz al-Imam al-Tha’alabi li al-Dirasat wa Nashr al-Turath.

Izham Hakimi Redzan & Maryam Benhaddou. t.th. *Diya’ al-Nahar al-Mujli li Ghumam al-Absar fi Nusrat Ahli al-Sunnah al-Fuqara’ al-Amsar al-Akhyar al-Mufassar lima Khafiya min Ahwalihim ‘ala al-Abrar li Abi al-Qasim Ibn Hajju*. t.tp.: t.pt.

Al-Kattani, Muhammad bin Ja’far bin Idris. t.th. *Salwat al-Anfas wa Muhadathat al-Akyas bi man Aqbara min al-‘Ulama’ wa al-Sulaha’ bi Fas*. Maghribi: al-Mawsu’ah al-Kattaniyyah li Tarikh Fas.

Muhammad bin Ahmad bin Muhammad Mayyarah al-Maliki. 1953. *Al-Dur al-Thamin wa al-Mawrid al-Mu’in Sharh al-Murshid al-Mu’in ‘ala al-Daruri min ‘Ulum al-Din li Ibn ‘Ashir*. Misr: Sharikat Maktabah wa Matba’at Mustafa al-Halabi wa Awladuhu.

Samir Yahya Samrad. 2018. Sharh Nuzm Buyu’ Ibn Jama’ah li Abi al-Qasim bin ‘Ali bin Khajju al-Hassani Dirasah wa Tahqiq. Tesis Doktor Falsafah, Jamiat Wahran.

Al-Shafshawani, Muhammad bin ‘Askar al-Hasani. 1977. *Dawhat al-Nashir li Mahasin man Kana bi al-Maghrib min Mashayikh al-Qarn al-‘Ashir*. t.tp.: Matbu’at Dar al-Maghrib wa al-Tarjamah wa al-Nashr – Silsilat al-Tarajim.

Wizarat al-Awqaf wa al-Shu’un al-Islamiyyah bi al-Mamlakah al-Maghribiyyah. 1976. Al-Shaykh al-Mufti Abu al-Qasim Ibn Khajju li Abd al-Qadir al-‘Afiyah. *Majallat Da’wah al-Haq*. 170.

Al-Zahabi, Abu ‘Abd Allah Muhammad bin Ahmad bin ‘Uthman bin Qaymaz. 1963. *Mizan al-I’tidal fi Naqd al-Rijal*. Bayrut: Dar al-Ma’rifah li al-Tiba’ah wa al-Nashr.